ضمن سلسلة « مشروع ألف كتاب »

1437 هـ 2015 م

تفريغ

مناقشة

كتاب الأخلاق والسير في مداواة النفوس لابن حزم

للشيخ :
أبو قتادة عمر بن محمود
حفظه الله

بسم الله الرحمن الرحيم

تفريغ

مناقشة كتاب (الأخلاق والسير في مداواة النفوس) للإمام ابن حزم

للشيخ/ أبي قتادة عمر بن محمود

ضمن مشروع "ألف كتاب"

مُؤسَّسَة التَّحَايَا

قِسْمُ التَّفْرِيغِ وَالنَّشْرِ

الحمد لله حمدًا طيبًا كثيرًا مباركًا فيه، والصلاة والسلام على أشرف الخلق وسيد المرسلين وإمام المتقين، حبيبنا وإمامنا وهادينا محمد وعلى آله الطيبين الطاهرين، وعلى صحبه الغرّ الميامين، وعلى من تبعهم بإحسان وهدىً وتقىً إلى يوم الدين، جعلنا الله –عز وجل– وإياكم منهم، آمين.

أهلًا وسهلًا بكم مع كتاب جديد من مشروع "ألف كتاب قبل الممات". واليوم مع كتاب الإمام الفحل العظيم **أبي محمد علي ابن حزم الظاهري الأندلسي** –عليه رحمة الله–. هذا الكتاب هو المسمى بـ(**مداواة النفوس**) أو (**الأخلاق والسير**).

هذا الكتاب له أثر شخصي عليّ، وقد تأثرت مبكّرًا بهذا الكتاب، وهو من الكتب التي في بعض مواطنه –مع صغر حجمه– قد أثّر عليّ طيلة حياتي. وكثيرًا ما أُصاب بحالات لا يكون العلاج لها إلا بهذا الكتاب وبما قاله.

فمن الأمانة أن أذكر أن ابن حزم هو إحدى الشخصيات التي صاغتني وربّتني، ولي خبرة شديدة معه وعشت مع كتبه مُنقّبًا ومحبًّا ومعجبًا به. وليس من العدل الآن أن أفتح النار عليه فيما أخالفه فيه، ولكن ابن حزم لا بد أنه يُشغف به طالب العلم المبتدئ الشادي للعلم.

أنا لا أظن أن طالب علم مبتدئ في عصرنا ممّن نبذ التقليد ابتداءً تحت دعوى (السلفية) إلا وكان له وجهة لقراءة كتب ابن حزم. وابن حزم شخصية آسرة مثل الثقوب السوداء؛ تجذب من دخل إليها وتأسره. وكما قال ابن عربي المالكي عن شيخه الغزالي أنه دخل في جوف الفلاسفة ولم يستطع الخروج، وكذلك قارئ ابن حزم يدخل جوف ابن حزم ولا يستطيع الخروج. يحتاج إلى علم خاص حتى يستطيع أن يخرج من جوف ابن حزم.

ولما كتبت في (فن القراءة) بعض مزالق القراءة ومنها أن يكون بينك وبين الكتاب حجاب حاجز لئلا يبتلعك، كان ابن حزم حاضرًا في ذهني، مع شخصية أخرى في هذا الباب لا أُعرّج عليها الآن، لكن كنت أقصد هذا الإمام الفحل، أنك عليك حين تقرأ لابن حزم أن تجعل بينك وبينه ستارً لئلا يبتلعك.

ابن حزم شخصية قوية، حتى إنه سُمّي بمنجنيق المغرب أو منجنيق الأندلس؛ لشدة قصفه وتأثيره في قارئه وفي واقعه. وما زال ابن حزم يُعمل هذا الأثر. وكثيرٌ من أهل العلم الذين قرأوا له تأثروا به. العز بن عبدالسلام قال: "ما طابت لي الفتوى حتى قرأت (المحلّى) لابن حزم و(المغني) لابن قدامة". ابن القيم نراه متأثرًا من ابن حزم حتى وهو ينتقده، ولكن نرى التأثر واضحًا بابن حزم. ابن تيمية من المتأثرين بابن حزم حتى مع انتقاده،

ابن تيمية انتقد ابن حزم في بعض المواطن؛ في مسائل الأسماء والصفات، ومسائل التعبير لأفعال الله ولشرعه، ويرى أنه تأثر ببعض مناهج المتكلمين، إلا أننا نستطيع أن نقول بأنه معجب بابن حزم في بعض اختياراته الفقهية، وتجد هذا النَّفَس في بعض ما اختصّ به ابن تيمية من المسائل التي انفرد بها عن مذهبه، أو عن مذاهب الأئمة الأربعة المشهورة.

فابن حزم شخصية قوية آسرة، ومن يدخل فيها لا بد أن يتأثر بها. ولذلك أنا في الابتداء أدعو كل طالب علم أن يحذر من هذه القوة الآسرة فيه، وأن يقرأه مع وجود فجوة ومساحة من عدم الذوبان فيه بالكلية.

وسبب سطوة ابن حزم اللغة القوية. وأنا أنبه هنا على نقطة مهمة جدًا: كلما كان صاحب الدعوة قويًّا في دعواه؛ كلما كان تأثّر المقابل به قويًا. وكلما كان الرجل متميّعًا في قضيته كلما كان هناك تردد في قبول كلامه.

عندما يرتفع صوت العلم ويرتفع صوت المنطق في الكلام وتجمع الأدلة بقوة وتبدأ في تحطيم الآخر؛ الناس يستمعون لك. ولو قارنّا هذه القضية بدعوة الأنبياء لوجدناها مهمة؛ فإن قوة الأنبياء في قولهم إن الحق الوحيد هو معنا. ربما هذه اللغة لا تنفع في مسائل الفقه، لكنها أحيانًا ضرورية؛ فإن مجرَّد وجود "أن هناك ثمة خلاف في المسألة وهذا خلاف مُعتبر"، يُسقط قيمة كلامك عند الناظر. أنا لا أتكلم هنا عن ما هو الحق وما هو الباطل، أتكلم عن طبيعة الخطاب، متى يكون مؤثرًا ومتى لا يكون مؤثرًا.

وابن حزم لا يطرح المسألة من مسائل الفقه ويجعل للمخالف فيها مجالًا أنه يملك بعض الحق، ابن حزم لا يعرف هذا.

وهذه طريقة في الفقه غير سديدة بلا شك، العلماء لا يجزمون في كل مسألة بأن الحق معهم، وإنما نجدهم قد يقولون: هكذا وصلني وأترك الآخر ليبحث. هذه اللغة نجدها في كلام الشافعي في (الأم)، في كثير من المسائل يتوقَّف، في كثير من المسائل يُعطيك عدم اطمئنان لما يقوله بعبارة ما. علاوة على الآخرين، يعني لو تأتون إلى كتاب الغزالي (المستصفى) تجدونه شكّاكًا، بعد أن ينتهي يقول لك: "لا أدري ماذا أقول!"، إذًا ما قيمة ما قرأته؟ يصدمك بعد رحلة عشرين صفحة من القراءة ثم ينتهي بك ويقول: "ولعله، ولعله!".

فكيف إذا جئت إلى كتاب الرازي (المحصول)؟ ينتهي إلى شك أعظم.

فلذلك ميزة ابن حزم أنه يقذف كلماته مُفعمةً بالثقة بحيث لا يترك للقول الآخر مجالًا للقبول ولا يترك لك مجالًا للاختيار، هنا تكمن قوة ابن حزم. ولذلك من يردُّ على ابن حزم يحتاج إلى علم خاص في علم الحديث، وطريقة ابن حزم تلائم المعاصرين في علم الحديث. طريقة المعاصرين في علم الحديث تتلاءم مع ظاهرية ابن حزم في الحديث؛ أنه يضعّف ويعلّل بالأمور الظاهرة، ولا يخوض في العِلل كما يخوض أصحاب الصنعة الحديثية، وأساطين العلم القدماء. والمعاصرون يتلاءمون مع هذا.

يخوض في الفقه بوجهه الظاهر لا يتعمّق فيه، ويكفي أن يقول لك: "الآخرون قالوا بالقياس والقياس باطل وهذا هو النص" وانتهى الموضوع، ويتركك عاريًا من أي درع تقاتل به وترد عليه؛ ولذلك الرد على ابن حزم يحتاج إلى علم خاص. نحن لا نريد أن نشجع الشباب على أن يردوا على ابن حزم! هذه ليست كذلك من الأدب. نحن نريد أن نصنع عقلية فقهية. هناك جزء من الحق عند ابن حزم ولكن علينا أن نحذر من طريقته.

الكتاب الذي اخترناه لا علاقة له في هذا الباب من فقه ابن حزم وطريقته، ذهبنا لابن حزم الإنسان.

وأنا تأملت كتبه فوجدت أن كتبه كلها تدخل في عبارة له وهي: أن كتبه قد ألّفها جميعًا في الرد على المخالفين. يعني هذا أن كتبه قد كُتبت بعد الحروب بينه وبين الخصوم. لا يوجد كتاب من كتبه ألّفه في زمن طلبه، لا يوجد كتاب ألّفه إلا وقد استوى على سوقه. ولما قرأت مثلًا هذا الكتاب لأعرف متى كتبه، فعلمت من خلال كلامه أنه كتبه في وقت متأخر، فعجبت لهدوئه!

يعني الأصل أنه مُحارَب ومات مسكينًا طريدًا، وقد أُحرقت كتبه، وعاش طريدًا في الصحراء بعيدًا عن الناس مع كبر سن، وغياب الترف الذي عاش فيه، فكان ينبغي أن يكتب كلامًا على طريقة (مثالب الوزيرين)، يعني يذكر مثالب الخصوم، لكنه هادئ! حتى لما جئت لـ(طوق الحمامة)، لما قرأته وأردت أن أعرف متى كتبه، وجدته قد كتبه متأخرًا، وقد أصابته البلاوى، ومع ذلك كتب كلامًا في الحب والعشق وغير ذلك مما يترتب على الحب والعشق الإنساني، أي عشق الإنسان الذكر للأنثى والأنثى للذكر.

فهذه شخصية غريبة!

حقيقة شخصية تكتب بهذا الهدوء بعد هذا الصراع شخصية غريبة. وواضح أن ابن حزم يستطيع أن يتحكم في نفسه، وأن كل كلمة قالها في هذا الكتاب هي صادقة.

ابن حزم له ميزات كثيرة، لكن من ميزاته أنه صادق مع نفسه. يُعرّي نفسه في كتبه؛ لأنه لا يعتبر أي تعرية هي مجال سلاح للخصوم. يعني عندما يقاتلك خصومك بكل أنواع القتال وتنتهي أسلحتهم، فأنت أي سلاح تعطيهم إياه لا يعُد له قيمة، ولذلك هو يعرّي نفسه يقول خذوا، تريدون أسلحة؟ تريدون أن تسبوا علي؟ خذوا ما شئتم لا أبالي. لماذا؟ لأنه يريد أن يَصْدُق قارئه.

هذه ميزة لعلمائنا جليلة عظيمة، ولابن حزم هي أجلى في هذا الجلاء وفي هذه العظمة.

مثلًا عندما يأتي على الزهد يقول: أنا لا أؤمن بالزهد الهندي، هذا الزهد الذي يتحدثون عنه هذا لا وجود له وأنا لا أؤمن به، الزهد هو أن آكل مباحًا ولا أطمع فيما هو مفقود، ولكني أتنعّم بما هو موجود كثيرًا أو قليلًا لا أتركه ولا أزهد فيه.

ويقول: ليس الفاسق عندي من إذا عُرضت عليه المعاصي وقع فيها، لأنه يعترف وهو يقول: بأنني أتحدى أي إنسان تُعرض عليه المعاصي كم يصمد؟ بعضهم يصمد من أول جولة، بعضهم ثاني جولة، بعضهم ثالث جولة، ولكن في النهاية إذا بقيت المعاصي تُعرض عليه سيسقط، وليس هذا عندي بالفاسق. الفاسق من حُبست عنه المعاصي فأتى إليها وبحث عنها!

يعني لا يريد أن يقول: أنا ذلك العابد الذي إذا جاءت إليّ المعاصي أنا فحل وجبل ولا تنفذ إليّ البتة. لا يريد أن يقول: أنا العابد الذي يقوم طيلة الليل. يقول" هذا نسك هندي أنا لا أؤمن به!.

ربما هذا الكلام في زماننا هذا يشجع على مزيد من ترك العبادات؛ لأنه ليس عندنا نحن نسك هندي! الناس عندنا سيأتون على صلاة الفجر جماعة. يعني تكاد تجد المسجد يخلو من المتديّنين، أو ممن يُحبّون ابن حزم، لا يأتون لصلاة الجماعة. فإذا سمعوا ظنوا أن ابن حزم يقصدهم؛ أننا نحن صالحون حتى لو فقدنا صلاة الفجر جماعة.

قطعًا هذا لا يقوله ابن حزم. هو يعبد الله بما صح في السنة، وما صح في السنة أن يقوم في الليل، أن يذهب إلى المسجد، أن يعمر بيوت الله، على ما يقوله من فقه.

فلذلك ابن حزم حين نجرّده من مشاكله الفقهية، طبعًا هو جرّد نفسه من المسائل السياسية؛ حارب كثيرًا وحُورب كثيرًا، مرة ينتصر مع من أيده من الملوك الأندلسيين، ومرة يحصل انقلاب فيُطارد ويُسجن إلى غير ذلك، ثم هجر السياسة. ترك تأييد من غَلب ومن غُلب، لكنه بقي محاربًا في مجال الفقه.

حين يأتي إلى هذه الكتب يستريح ابن حزم، فيُظهر نفسه الإنسانية بما فيها، وينصح أمته نُصح الرفيق ونُصح الصادق ونصح الأمين. وهذا الكتاب هو من هذا النوع.

الكلام عن شخصية ابن حزم بعيدًا عن فقهه وبعيدًا عن اختياراته الفقهية واختياراته العَقَدية كذلك واختياراته الأصولية واختياراته الحديثية، هذا باب واسع كل جانب فيه يحتاج إلى مؤلَّف ومصنَّف وجَلَسات. ولكن نحن نتحدث الآن عن ابن حزم باعتباره مجرِّبًا للحياة، وباعتباره خائضًا لسبلها في كل أنواعها، فقد كان مُنعَّمًا ثم أصبح بعد ذلك في السجن، كان منعّمًا ثم أصبح بعد ذلك طريدًا في الصحراء، له الأعداء وله كذلك المحبّون.

يعني شخصية عاشت التناقضات في حياتها فلا بد أن نستمع لما يقول، وعلينا ألا نقف مع كلماته ككلمات تُلقى هكذا، يجب أن ندقّق فيها.

وأنا أقول لكم أني ممن تأثَّر بهذا الكتاب مبكّرًا. ومن عاشرني يعرف متى أحتاج لبعض الكلمات، مثل ذلك استفادته من أعدائه، هذه دائمًا أنا أستشهد بها من هذا الكتاب.

كم استفاد ابن حزم من أعدائه وخصومه، يقول: إن عامة ما كتبه من العلوم إنما هو بسبب وجود الخصوم، فوجود الخصوم نعمة إلهية!. يقول عليك ألا تُظهر دهاءك وألا تُظهر ذكاءك لأنك ستُحسد وستُقاتل. يقول اجعل نفسك كأنك لا تفهم، هذا التغابي. هذه مواطن له يجب علينا أن نراعيها، وعلينا أن نهتم بها.

ولذلك في الكلام عن هذا الباب ممكن أن نتحدث عن **كيفية قراءة هذه الكلمات؟**

ابتداءً أقول إن هذه الكلمات لا يجوز لأحد أن يقرأها قراءة جريدة ثم بعد ذلك يرمي الجريدة! هذا كتاب يجب أن يكون كتاب الجَيْب. وكلما رأيت حالة فراغ وتعب وكنت غير قادر على قراءة الكتب العلمية الثقيلة أخرج هذا الكتاب فهو ككتب الراحة بدل أن تضيع وقتك أخرجه واقرأ. ستجد الراحة فيه، ستجد المعونة فيه، ستجد الكلمات السهلة فيه، والتي تحتاجها في مشاكلك وفي حياتك.

فهذا كتاب ينبغي أن يكون لطالب العلم، والداعي إلى الله، وللمجاهد، وللإنسان في حياته وفي بيئته لمعرفة أصدقائه من أعدائه، لمعرفة كيف يُطلب العلم، لمعرفة الخصوم من الأحباب. فهذا كتاب الجيب.

النقطة الثانية: هذا الكتاب عندما ينظر فيه الناظر يعجب، يجد أن بداية الكتاب هو لمحات، يقذف بالعبارات القصيرة، وعندما يأتي إلى المنتصف يبدأ بالتطويل والشرح وكأن الموضوع يختلف لديه، العبارات الأولى تكفي فيها عبارة قصيرة، ويقول لك: افهمها فهي مليئة. الثانية كأنه يعجز عن الاختصار، هل هو تغير للحال؟ هل هو ذاهب للكتاب مع أحوال متعددة؟ أنا أجزم أن هذا الكتاب لم يكتبه في جلسة، لأن سياقه مختلف، وربما كتبه على ظروف متعددة، ليس على طريقة (صيد الخاطر)، مع أننا نستطيع أن نضع هذا الكتاب في نموذج (صيد الخاطر) لابن الجوزي، فهو تطرأ على باله الفكرة لحظة استجمام، أو تكون حالة معينة تستدعي فكرة معينة فيذهب ويسجل هذه الكلمات في كتابه، ويقول هذه لحظات استجمام ولحظات راحة.

وبعضهم ألّف (هكذا علمتني الحياة) مثل الأستاذ مصطفى السباعي، شذرات من عملي مجموعة سميتها: (شذرات من الفكر والحياة) على هذه الطريقة، لكن هذا الكتاب من الصعب أن نضعه هكذا، لأن الكتاب ليس انتقاءً للأوقات، يعني لما تذهب للكتاب تجد ترابطًا فيه، وليس مثل كتاب (صيد الخاطر) تجد أن الفكرة الأولى تختلف عن الثانية، الأولى تتحدث عن الفقر والغنى، الثانية تتحدث عن الصداقة، فابن حزم رتَّب كتابه ترتيبًا مبوَّبًا؛ تحدث عن الحب تحدث عن الصداقة تحدث عن العلم تحدث عن أدواء الأخلاق عن كيفية معالجة، فكأنه ألّف كتابًا، وإن كان كنموذج من هذا الباب وهو ما استفاده ابن حزم من حياته، ما أراد أن يقدّمه للأمة من ثمرات الحياة المتناقضة والصعبة، كأنه أراد هذا لكن طريقة التأليف تختلف.

الفرق بين أن يكون للرجل "كُنّاشة" كما يسميها علماؤنا قديمًا، وهذه كلمة ما بقيت إلا عند المغاربة، كُنّاشة يعني يكون للرجل كتابٌ أو دفتر فيه ورقات كلما خطرت له خاطرة كتبها، كلما سمع مسألة علمية سريعة كتبها، فيجمعه بعد ذلك ويكون عنده كمية، وهذه أنصح بها طلبة العلم، لأنك كثيرًا ما تحتاج العبارة فلا تجدها، فإذا كتبتها قيّدت صيدك، ورجعت لها فوجدتها محفوظة في هذا الكتاب، أنا أنصح بهذا المبتدئين، سيجد عنده بعد ذلك عنده كمية، وإذا رجع إليها بعد ذلك وجد عنده منفعة وفرِح بها. وهذه للأسف مما فقدنا النصح له ابتداءً وسلوكه، ففاتنا خير كثير من الأمور التي مضت، وربما كتب المرء بعض الشذرات فلما رجع إليها فرح بها، كأنها مكتوبة مِن قِبَل غيره.

فهذا الكتاب ألّفه ابن حزم وهو ذاهب إلى كتاب، كما أنه ذهب إلى (طوق الحمامة) وهو في ذهنه كتاب. بخلاف (صيد الخاطر)، (شذرات من الحياة)، (هكذا علمتني الحياة)، كلما خطرت له فكرة أو حدثت قضية ذهب وكتب فيها المنفعة.

النقطة الثالثة في هذا الكتاب: هذا الكتاب يحتاج إلى شرح، وليت بعض طلبة العلم يتفرّغ لشرحه، الشرح من أجل أن يبيّن ما فيه من معاني، والحق أقول لكم: لا ينفع لشرحه شاب، ليس امتهانًا للشباب، ولكن هذا كتاب تجربة وليس كتاب ألفاظ، يمكن لطالب العلم المبتدئ أن يشرح ألفاظه، يقول هذه العبارة المقصود بها كذا وكذا، يبيّن جماليَّة العبارة، يبين معناها وإذا كان فيها تلغيز، إذا كان فيها عدم إبانة يشرحها. لكن هذا الكتاب ليس كذلك؛ هذا الكتاب يحتاج شرحًا من رجل مجرّب مُعانٍ، يقف أمام تلاميذه ويبيّن لهم ماذا تعني هذه الكلمات، كيف صدرت منه، كيف تكوّنت، كيف يمكن للمُجرِّب أن يُقدّمها لغير المجرِّب وينتفع بها عند نزول الحوادث؛ لأن كثيرًا مما تقرأ لا يغوص إلى نفسك، يبقى على القشرة يا شيخ!، بمعنى أنه عند ضرورة وجوده لا تجده لأنه على السطح.

الآن هل كل أحد يذكر آيات الصبر عند وجود الجزع وعند وجود المصيبة؟ من يذكرها؟ من كانت الآيات غائرة غائصة في نفسه، قد ملكت روحه وتشبّعت بها نفسه وقلبه، حينئذ لو وقعت مصيبة فورًا تحضره آيات الصبر وأحاديث الصبر ويبدأ هو يصبّر نفسه بها، لكن القراءة العادية والتي لم يُعاينها فإن الكلمات تبقى على السطح، عند حضور ضرورتها تطير وتتبخر، ويخرج ما في النفس من حقائق، وهذه لم تكن من حقائق النفس لأنها لم تغص، ليست غائرة.

ولذلك أنا أنصح أن يُشرح هذا الكتاب من مُعانٍ، من رجل عاش هذه التجارب. وسنرى بعض الكلمات الرائعة وسنقرأ هذه الجلسة، لا نريد أن نتحدث عن ابن حزم أكثر، وحتى لا يقول أحد: أحس بأنك معجب بابن حزم، كان عندنا لقاء -ومسجل موجود في النت- في رمضان كل يوم في رمضان أختار عالمًا فأتحدث عنه، مثلًا اخترت البخاري، اخترت أبا الحسن الندوي، واخترت ابن حزم، فواحد جاء إلي وقال: "كانت كلماتك اليوم كلمات محبّ لم تستطع أن تستر حبك لابن حزم!"، ولا شك أنني أحبه، ولكنني لست -إلى هذه اللحظة- ممن في جوف ابن حزم، يعني أقرأ لابن حزم وأنا أنتقده وأُراجع ما يقول وخاصة في أبواب الفقه والأصول.

وفي كتابي أرجو أن أُعيد الابتداء به وهو (حوار مع الكبار)، ناقشت مسائل لابن حزم ورددت عليه فيها، كقوله: "من السنة كذا"، نفى أن تكون المرفوع وهي في الصحيح من كلام الصحابة.

النقطة الرابعة في هذا الكتاب: أنا أحب كذلك من يملك صوتًا جميلًا على طريقة نونية القحطاني أن يقوم بقراءة هذا الكتاب، أن يقرأه ويكون أشرطة، أن يُتلى، لأن الحقيقة معانيه حين تُلقى هي أشبه بمعاني الناصح التي يُلقيها لتلاميذه، هذه النصائح تحتاج إلى أن تُلقى، ونصائح السماع أطرب من القراءة، وهذا مأخوذ من قوله ﷺ: (إني أحب أن أسمعه من غيري)، فأنا أنصح من كان صاحب صوت جميل جيد فليقم بقراءة هذا الكتاب وهو صغير، أصغر من نونية القحطاني لو قرأه القارئ ويقف عنده بالطريقة المجوّدة إن شاء الله سينتفع به.

نأتي إلى الكتاب وما فيه، سأقسّم الحديث عن الفوائد الجانبية التي تعلِّم طالب العلم المبتدئ كيفية القراءة، مثال: يمكن أن قرأ هذا الكتاب من جوانب متعددة؛ من هذه الجوانب: متى توفي ابن حزم؟ ٤٥٦هـ –وهذه بالعربية لا تُقرأ من اليسار، نحن متأثرون بالغرب نقرأ: أربعمائة وستة وخمسين، هذه قراءة غربية الصواب أن نقول ستة وخمسين بعد الأربعمائة، احفظوها حتى إذا سُئلت متى توفي ابن حزم تقول: أربعة خمسة ستة–. وكما قال الشيخ أبو زهرة: "إن أغلب أهل العلم عُرف يوم وفاتهم لأنهم ماتوا وهم مشهورون، فلما ماتوا عرف الناس يوم وفاتهم"، لكن أغلبهم قد وُلد مغمورًا لم يُعرف مولده إلا ابن حزم، ابن حزم ابن أمراء فلذلك حدّد اليوم والساعة وفي الليل أو النهار وفي الشتاء وُلد ابن حزم وكان موته غريبًا، فلما وُلد كان أشهر لمن سجَّل من يوم وفاته.

ومما استغربته في هذا الكتاب، وهذه فائدة لمن يؤرّخ يوجد خيال الظل، خيال الظل هو السينما، أنا قرأت لمن أرّخ لها لكنّ كل الذين أرّخوا لها جعلوا دخول خيال الظل على المسلمين هو في زمن المماليك، وهو في القرن الخامس الهجري، وهذا زمن مبكر، تعرف ما هو خيال الظل؟ هو وصفه في الكتاب، يقول: كيفية إدارة خيال الظل؛ وهو كان قديمًا نفس فكرة السينما اليوم، يضعون شاشة ويغلقون في ظلمة، ويضعون الضوء يشعلونه فيُظهرون الظلال، فالناس يرون الظل فيُجرون الحركات التي يريدونها، إما أشخاص حقيقيين والأغلب ليسوا حقيقيين إنما ألعاب مصنوعة مثل الأراجوز لكن بطريقة الظل، هذه فكرة السينما، وهذا ابن حزم يقول عن

خيال الظل!، فهذه يمكن الاستفادة منها ، يقول: "**أشبه ما رأيت في الدنيا خيال الظل**"، ثم يشرح ما هو خيال الظل، يقول: "**هو شيء يشبه طاحونة توضع على الطاحونة وتتحرك..**" إلخ.

من الطرق التي يمكن أن نقرأ بها الكتاب مع أنه في الأخلاق والسير ومداواة النفوس، إلا أنه جعل فصلًا في الكتاب يتعلّق بمعاني الكلمات وما هو وجودها في الخارج، مثل: حُسن، مَلاحَة، قِوَام، ما دخل هذا في الأخلاق؟ لكن واضح أنه قد شدَّته هذه المسائل فلا بد أن يتكلم فيها ليأتي إليها.

نقطة خارج الموضوع قبل أن نبدأ بشرح بعض عباراته أو اختيار بعض عباراته المهمة وإن كان الكتاب كله مهمًا، وهو أنه لم ينسَ أنه ظاهريّ حتى جاء إلى القياس، مع أنه حتى في (طوق الحمامة) يأتي إلى مسألة من مسائل الحب ويقول: هذا القياس صحيح، لا أحد يحتج عليهم فساد القياس، هنا القياس ضروري. مع أنه في الحقيقة أنا جمعت له –ولم أفرغ له فراغًا تامًّا–، جمعت له في قراءتي الأخيرة (للمحلَّى) وأنا في السجن أقواله في القياس في (المحلى)، يعني وقع فيما ينهى عنه ويأتي إلى المسائل ويقول بالقياس، وينفيه كليًّا، قياس علّة أو قياس نص لا يأخذ به.

فهنا لا ينسَ أنه ظاهري، فمثلًا يأتي إلى آخر فصل في الكتاب ويقول: "**القياس في أحوال الناس قد يكذب في أكثر الأمر ويبطل في الأغلب، واستعمال ما هذه صفته في الدين لا يجوز**"، هذه العبارة رائعة والحق أن كل عاقل ينبغي أن يؤيده في نفي القياس في هذا الباب، وهي تنفي بعض الدراسات الباطلة الغربية في كيفية اكتشاف الشخصية من خلال السِّمة، بمعنى أن بعض الناس يقول: "والله هذا وجهه لم يعجبني، هذا وجهه وجه سرّاق"، يدخل عليك شخص مرتب وحلو ولابس جرافة: "ما شاء الله هذا مبين عليه مكنّز أموال، معه أموال ومحترم"، وهو في الحقيقة لص!، ولذلك القياس لا ينفع في هذا، يعني إذا واحد سرق منك شيئًا وأنفه طويل فكلما رأيت واحدًا أنفه طويل تقول أنه سرّاق. لا ينبغي إذا واحد في يوم نصب عليك بلباس معين وهيئة معينة أنك تقيس كل لباس على هذا لتحكم عليه على أنه لص أو نصّاب. هذا قياس غير صحيح في الكلام، وللأسف الناس كثيرًا ما يخطؤون به، واللصوص والنصابون والفاسدون يعرفون هذا، فيتلاعبون بالشكل للهروب من هذا.

فقراءة ابن حزم حتى في هذا الباب، يعني كيفية عدم القياس في أحوال الناس لأن القياس في هذا يكذب.

نقطة مهمة جدًا في هذا الباب، أراد بعض محققي الكتاب أن يجعل هذا الكتاب –أي كتاب ابن حزم– ضمن مشروع أهل السنة في موضوع الأدب ضد الغزو الفكري لمفهوم الأدب والثقافة عند البعض. بعضهم ذكر هذا في مقدمة تحقيقه للكتاب وهذا خطأ تمامًا، لكننا سنستفيد في جانب آخر.

لما غزت الثقافة الهندية والفارسية واليونانية عالم الإسلام من الترجمة وبدأت الترجمة، بغض النظر عن غزوها بجانب العقائد وفي جانب التصورات وجانب المنطق، لكن كذلك دخل جانب الأدب، فبدأ البعض يؤلف كتبًا في الأدب ويجعل الأقوال التي قالها الهنود وقالها الفرس وقالها اليونان بموازاة ما في الحديث، يعني إذا ذهبت لكتاب (الأدب الكبير) لابن المقفّع لا تجد فيه أحاديث نبوية، ربما تجد فيه حديثًا أو حديثين لكن تجد الكتاب مليئًا بما قاله اليونان وما قاله الهنود وما قاله الفرس، لو ذهبت إلى المسكويه في (الأخلاق) لوجدته كذلك، فبعض الدراسين وقد أصابوا في ذلك، وهذه قد نبّهتُ عليها قديمًا؛ لأنني وجدتها أن أهل الحديث بدأوا في الرد عليهم في تأليف كتب في الأخلاق النبوية ليقولوا بأن مصدر التلقي في الأخلاق ليس ما تقولونه عندنا ما يكفينا؛ فألّف الإمام البخاري كتاب (الأدب المفرد)، والإمام ابن داود أوسع كتاب في كتابه (السُّنن): الأدب، فبدأوا يؤلفون في الأدب ردًّا على ما بُدِءِ بتصنيفه من قِبل البعض تأثُّرًا بما قاله الآخرون، وهذا من قبيل وحدة المصدر.

فبعض المحققين لهذا الكتاب جعل هذا الكتاب على هذه الطريقة، وهذا غير صحيح، ابن حزم لا يتكلم عن الأدب، لا يتكلم عن الأخلاق، يتكلم عن الإنسان؛ عن إخفاقاته، عن نجاحاته، عما ينبغي أن يحذره عما ينبغي أن يراعيه إلخ، ويتكلم عن تجربته الشخصية. ولما رجعنا إلى الكتاب لنجد هل قاله من جهة التجربة أم من جهة النصوص؟ وجدنا أن الكتاب أن قاله من جهة التجربة، احذر كذا افعل كذا إلخ، يتحدث عن تجربته، ولا يدخل في هذا مع أن أصل القضية صحيح، لكن وضع هذا الكتاب ضمن المشروع الذي هو رد أهل السنة على المتأثرين بالثقافة القادمة الوافدة هذا كلام غير صحيح.

من المهم الانتباه أن ابن حزم في دعواه لهذه القضايا كان حريصًا –لا حرص المُرضي لغيره بل حرص العابد لربه– أن يبيّن أن القيم لا تكون عظيمة إلا بنسبتها لهذا الدين، وأن ختام ما يمكن أن يبلغه صاحب الأخلاق وفاهم البشر وعالم النفس البشرية هو باتباع سنة النبي ﷺ، وأقول هذه الكلمة ردًّا على محمد عابد الجابري؛ في تقسيمه لعقل المسلم التقسيمات الثلاثة؛ العقل البياني وهم الفقهاء، العقل الغنوصي وهم الصوفية، والعقل

الذكي أو العقل القياسي أو العقل المفكر وهم المتكلمون والمعتزلة وغيرهم. ويقول محمد عابد الجابري أن الثقافة الإسلامية والبيئة الإسلامية أنتجت ثلاثة عقول، هناك العقل البياني وهو الفقهي والذي بناه الشافعي ومشى عليه الفقهاء وكذا وهذا عقل غلط، حتى أنه يدخل في مفهوم العربية فهمًا باطلًا ويسب على العربية، وحاول البعض أن يرقّق مراده والحقيقة أنه يسبّ على العربية، وجعل أن مجرّد التفكير من خلال اللغة هو مفسدة، هذا واحد. العقل الثاني هو العقل الغنوصي وهو الصوفي وجعل له رجاله إلخ. العقل الثالث هو العقل المعتزلي أو العقل المفكّر أو العقل العقلي إن جاز التعبير، ومن هنا اتُّهم محمد عابد الجابري بأنه مغربي ونسب ابن حزم لهذا العقل، مع أنه لو أردنا أن نتابع عابد الجابري في هذه الدعوة لوجدناه بيانيًّا، لأنه يرفض القياس أصلًا ، ويرى النص وإذا خلا النص نرجع إلى العبارة الأصلية هذا هو الدليل وانتهى الموضوع عنده.

فالاتهام الذي وُجّه إليه أنك أنت مغربي، فبالنهاية تريد أن تجعل ابن رشد وابن حزم باعتبارهم عقولًا متنوّرة آمنت بالعقل أكثر من إيمانها بالنص أو إيمانها بالغنوص.

لماذا قلت هذه الكلمة؟ لأن هذا الكتاب حتى لو لم نعرف منهج ابن حزم هل هو بياني أم غنوصي أم متكلم؟ حتى لو لم نعرف فإن هذا الكتاب بنصوصه ردٌّ عليه، لأنه ما هو العقل؟ انظروا هذه العبارة الجليلة من ابن حزم لنعرف ما هو العقل الذي يمدحه المعاصرون وما هو العقل الذي يعرفه علماؤنا، علمائنا ماذا يعرّفون العقل؟ لو ذهبت لابن مسكويه في كتابه (الأخلاق) –وقد ذكرناه باعتباره متأثرًا بالثقافة– ما هو العقل عنده؟ العقل يأخذونه من لفظه، العقل من الربط، عقلت الدابة ربطتها، أُخذ منه العِقال لأنه به يُربط، فالعقل لأنه يربط الإنسان عن السفاهات والسفالات والقبائح. سُمّي العقل عقلًا لأنه مقيّد لسلوك المرء الأخلاق السيئة، وليس فقط مقيِّدًا لاختيارات المرء في المسائل العقلية الذهنية، بل يجعلونه أعظم من ذلك؛ وهو أن دور العقل جانب تربوي وليس جانبًا ذهنيًا فقط. هذا هو تعريفهم.

التعريف الثاني الذي هو يستطيع أن يفكر ويوازن ويقرر ويربط المقدمات بالنتائج.. إلى غير ذلك.

فما هو حد العقل عند ابن حزم؟ انتبهوا حتى نجرّد هؤلاء من دعواهم الكاذبة أن ابن حزم خارج إطار الفقه الإسلامي والبيان النبوي أو البيان القرآني. سأقرأ نصين على هذا المعنى.

المعنى الأول يقول: "**وحدُّ العقل استعمال الطاعات والفضائل**"، هذا حد العقل أي تعريف العقل، إذًا بن حزم يرى أن العقل ليس بمفهومه الذي يطرحه هؤلاء، إنما يرى العقل بالمفهوم الشرعي وهو {لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ}

يعني يُقيِّدون سلوكهم عن سلوك الفاسدين الضالين إلى غير ذلك. وهو يمشي على مِنواله ويرى أن العقل في جانبه الأعظم وهو الجانب التربوي والجانب الاجتماعي والجانب الأخلاقي والجانب السلوكي وليس فقط الجانب الذهني.

يقول: "**من أراد خير الآخرة وحكمة الدنيا**.."، انتبه أن ابن حزم هو إنتاج إسلامي، إحدى صراعاتنا مع خصومنا أنهم يريدون عظماءنا إنتاجًا غير إسلامي، هم يريدون هذا بحيث مثلًا عندما يدرسون الشافعي يقولون هو إنتاج يوناني وعندما ألف (الرسالة) هو منطق يوناني، من أين منطق يوناني؟ العربية هي التي أنشأته. وعندما يأتون إلى ابن رشد يجعلون إنتاجه يونانيًا.

فالقصد أن هؤلاء يريدون سلب كبارنا من الإنتاج الإسلامي لهم، يعني ابن خلدون كأنه خارج الإطار الإسلامي، وابن حزم إنتاج غير إسلامي، فانظر ماذا يقول: "**من أراد خير الآخرة وحكمة الدنيا**"، إذًا هذه واضحة، لا مجال للقول فيها أن ابن حزم يتلقَّى معارفه من الآخر، فإذا أخرجوا لنا كتاب (تقريب حد المنطق)، وهذا يحتاج إلى درس لأن ابن حزم ممن قال بأن المنطق يعصم العقل من الخطأ، كما أن العربية تعصم اللسان من اللحن، وهذا يحتاج إلى بيان ما هو المنطق الذي يؤمن به ابن حزم، لكن نحن نقف على الكتاب الآن لضيق الوقت.

"**من أراد خير الآخرة وحكمة الدنيا وعدل السيرة واحتواء على محاسن الأخلاق كلها، واستحقاق الفضائل بأسرها فليقتدي بمحمد ﷺ، وليستعمل أخلاقه وسيره ما أمكنه.**"

ما أبقى للعقل مجالًا أن يذهب لغير هذا المورد العظيم، ما أبقى للحكمة مكانًا أن يدخل إليها آخرون فيجلسوا على كرسيها ولو للحظة، ملأ كل ما يحتاجه المسلم أو الإنسان لكماله بشخص النبي ﷺ، أخلاق النبي ﷺ، ملأها بسيرته، ملأها بملامحه.

هذه من القراءات السريعة لما يمكن أن نفهم هذا الرجل العظيم.

تعرفون أن الذي يكون في الذهن يشغل اللسان دومًا، فلو سأل سائل: أي شيء رأيت في ابن حزم لا يكاد يفارق كلامه؟ يعني تجده مبثوثًا في الكتاب بطرق مختلفة؟ يضعه هنا ويضعه هنا وهنا ولكن بأشكال مختلفة؟ الكلام على دور الخصوم؛ وكأن الرجل يشعر بأن الخصومة قَدَرُه أولًا وقَدَرُ كل طالب علم، قدر كل متربي،

قدر كل حكيم، قدر كل عامل، قدر كل مقاتل، وجود الخصوم قدرٌ لازم للإنسان. وأجمل عبارة له في هذا الباب أقرأها لكم، طبعًا العبارات كثيرة لكن أجمل عبارة انتبهوا لها، والله هذه عبارة من لم يحفظها أو من لم يعرفها فإنه فاته خيرٌ كثير!، انظر إليه ماذا يقول:

"**لا تفرح بموت عدو لك فإن موته يُنتج كثرة الأعداء**"، بعض الناس يقول: "الحمد لله ما ظل عندي أعداء، مات عدوي"، نقول: لا تفرح هو كان يملأ هذا الباب فالآن بعد ذهابه سيتنافس على هذا الباب الكثيرون، فإذا مات عدو لك جاء لك أعداء، فهذه من أجمل عباراته.

انظر إليه يقول: "**مُقرِّب أعدائه قاتل نفسه**".

يقول وكل الحديث عن الأعداء يريد أن يُجنِّبك إياهم: "**احرص على أن توصف بسلامة الجانب، وتحفّظ من أن توصف بالدهاء، فيكثر المُتحفِّظون منك، حتى ربما أضرَّ ذلك بك وربما قتلك**"، هذه من الكلمات التي أحياها، وعشتُ معها طول عمري هذه الكلمات.

محمد علي باكثير كتب قصة جميلة في هذا الباب، عن رجل مجذوب، وتعرفون أن الناس يُسمُّون المجانين مجاذيب، ويعتقدون فيهم الصلاح -في القرى قديمًا بسبب الجهل-، وأنه ينطق بالغيب، والنساء يُدخلنه ليسألوه ويعطوه المال والطعام ويعتقدون أنه كما يقول البعض (اللاوي) يعني رجل مفتوح إلخ اعتقادات الجهلة.

فيضرب قصة عن قرية مصرية فيها مجذوب، فيقول: هذا رجل مجذوب ودائمًا أوضاعه سيئة والناس يطعمونه لأنه مجذوب، والمجذوب على طريقة الصوفية مجذوب إلى الحضرة الإلهية عندهم، -والصوفية هم من أفسد اللغة، لأن كلمة (بُهلول) معناها الرجل الكريم الشجاع ونحن الآن صار معناها عندنا مجنون، لأن الصوفية يطلقون على مجانينهم بهلول-، فهذا المجذوب لطيبته وظنوه مسكينًا مجذوبًا، فكان الناس جميعًا يُلقون إليه بأسرارهم، فكل من لديه هم يأخذه ويأخذ معه بعض الطعام ويذهب به عند المقبرة ويجلس معه ويُحدّثه، والمجذوب يهز رأسه، المهم كل القرية أسرارها عند المجذوب على أساس أنه مجنون لا يفهم، في النهاية اكتشفوا أنه ذكي فقتلوه، لأنهم كلهم أصحاب أسرار عنده.

على الأعداء كلام كثير، مثلًا يقول: "**اطرح المبالاة بكلام الناس**"، نفس كلمة الشافعي: "ما يضرك كلام الناس".

يقول: "**إياك أن تمتنع عن العمل مخافة الرياء**".

ويقول: "**من قَدَّر** -يعني من ظنّ- **أنه يسلم من طعن الناس فهو مجنون**"، هنا يأتي هل يمكن أن يكون ذم الناس أفضل من مدحهم؟ يقول: نعم ذم الناس أفضل من مدحهم، لأن المدح يدعو العُجب ويدعو إلى السكون، لذلك قال: الذم أفضل؛ لأن الذم ينقلب عليك، فإما أن يكون الذم صحيحًا فتُصلح نفسك، وإما أن يكون غلطًا فتصبر وترد فتنتج المعارف. ذم الناس يقول ليس هذا من جهة ملاءمته للنفس، هو يعترف لا أحد يقول: أنا ذم الناس عندي ومدحهم سواء لا أحزن لذمهم، بل أحزن لكن كيف أتحرك؟ ما هو رد الفعل الصحيح على ذم الناس؟ الأنبياء كانوا يغضبون ويتعبون مما يُقال عنهم من كذب.

آتي لكلمة ينبغي الوقوف عندها، لما جاء لقواعد العلم وهذا الفصل مع قِصره مهم جدًّا، وهو (قواعد في العلم) تحدث عن العلم وما هو، تحدث عن ما هو أجلُّ العلوم، تحدث عن قضيتين في العلوم مهمتان جدًا، وقد يبدو بينهما التعارض وليس كذلك. يقول: "**ابدأ بأَجَلِّ العلوم وأهمها، لا تنشغل بما هو أدنى، انشغل بما هو أعلى**"، وبعد فقرة أو فقرتين يأتي إلى كلمة غريبة يبدو فيها التعارض، يقول: "**إذا طاب علم من العلوم في لنفسك فأقبل عليه، انشغل فيه لا تنشغل في غيره**"، هو البداية يقول: عليك بأجل العلوم، ابدأ بالعلوم الجليلة، ابدأ بالقرآن، ابدأ بالسنة هذه أجل العلوم. بعد ذلك بعد فقرة أو فقرتين يأتي إلى كلمة ويقول: "**إذا طاب بعض العلوم إلى نفسك وإن كان أدنى فانشغل به، لأنك إذا اشتغلت بغير ما تحب ستُبغض نفسك ولا تسفيد، وعليك بما طابت نفسك من العلوم فاشتغل به**"، هل هناك تعارض؟ الجواب: لا.

يعني على المرء في الابتداء أن يتعلم العلوم الواجبة، ثم إذا صار التخصص يصير إلى ما ترغب نفسه، فيمكن رد التعارض.

له كلمة غريبة جدًا في العلوم وهذه لا أستطيع أن أشرحها الآن، لكني أضعها بين أيديكم لتبحثوا عن معانيها وتسألوا عنها لأنها جليلة، فاسمعوا هذه الكلمة الجليلة لهذا العالم العظيم، استمعوا لها وهذه مهمة، يقول: "**العلوم الغامضة كالدواء القوي، يُصلح الأجساد القوية ويُهلك الأجساد الضعيفة، وكذلك العلوم الغامضة تزيد العقل القوي جودًا وتصفيةً من كل آفة، وتُهلك ذا العقل الضعيف**"، أتركها لأن الوقت يضيق.

وهذه كلمة عظيمة تدخل فيها علوم كثيرة تُعاب على الناس، أذكر لكم أمثلة سريعة، علم الفلسفة مثلًا علم غامض، يقول: قليل من الفلسفة يؤدي إلى الإلحاد، لكن لو تبحَّرت فيها تكون قد قويت نفسك فكل ما يُقال فيها يكون زيادة ليقينك في دينك، لكن لو كنت ضعيفًا وأخذت منها فما النتيجة؟ فهي من العلوم الغامضة. فالمسائل دقيقة كلما خضت فيها وكنت صاحب علم في الخوض فيها، كانت هذه المسائل زيادة ليقينك، لكنها عند الضعيف يدخل فيها فيتوه، في النهاية لا يصل إلى مُستقَرِّه فيهلك.

انظروا إلى هذه الكلمة الرائعة، يقول: "**لا تجرّب عقلك بعرض الآراء الفاسدة**"، هذه في الحقيقة لا تُقال مطلقًا هكذا وإنما تُقال للمبتدئ، وإنما من العلم أن تُطرح الشُّبه على المتمكن للتدريب للتقوية، أو تُطرح على العالم من أجل الرد عليها، أما المبتدئ لو طُرحت عليه قتلته وأفسدته، لكن على الشيخ والمعلِّم أن يطرحها ليُدرّب حتى في مسائل الشُّبه عليه أن يطرحها على طلبة العلم من أجل أن تقوى لديهم مَلَكة الرَّد، والناس يطرحون الشُّبه على العالِم من أجل أن يردّ عليها لأنه أهلٌ لها، لكن أنت لا تجرّب عقلك بعرض الآراء الفاسدة.

هذه تذكرني بكلمة لابن القيم في نسبتها لابن تيمية في (مدارج السالكين)، يقول: "سألت شيخي ابن تيمية عن قضية ما هو الأفضل أبقى ماشيًا في الطريق أم أبحث في نفسي عن أمراضها لأعالجها؟ قال له: لو كنت أنت ماشيًا في طريق وحولها الأوساخ مغطّاة، لو انشغلت أنت بكشف الأوساخ لتردمها بعد ذلك لما وصلت للنهاية، فالمطلوب أن تتركها وراءك وتمشي".

ويتكلم عن الدُّخلاء على العلوم وأرجو أن تُرجع إليه.

لكن هنا له كلمة، ولا أريد أن أطيل وأظهر العضلات في الرد عليه، لكن هي كلمة ليست مقبولة من ابن حزم، ويذكر أصل المسألة من فقهه -رحمه الله-، لكن أن يُمثِّل لها فقد يخالف وقد تخالفه، وهي قضية: هل هناك من العلم ما لا يمكن أن تبلغ فيه قرارًا وتبقى في قضية العماء فيه؟ الجواب: نعم، وهو يُمثِّل لهذا، يقول: هناك بعض العلوم العلم بها كالجهل بها، ليس من قبيل عدم اهتمامها، ولكن العلم هو الجهل، لأنه لا ينتهي إلى قرار ويمثّل بالتالي، يقول: "**وقف العلم عند الجهل بصفات الباري -عز وجل-**"، يمكن أن تُحمل على التكييف، يعني ما هو علمك بكيفية هذه الصفة؟ هو الجهل، ويمكن أن تُحمل على طريقته لأن ابن حزم من المؤوِّلة للصفات، فهي عبارة تحتاج إلى التقييد ممن يريد أن يشرح هذا الكتاب.

من فوائد هذا الكتاب الاهتمام بالإخوان والصداقة، وهذا باب مهم، أساس الارتكاز فيه على أنه يجب عليك إن أردت أن تكون عاقلًا أن تعرف قيمة الشيء وهو في يدك، من غرائب الأمور التي تقع، أن المرء حين يكون غائب عنك يكون عظيمًا، فإذا حضر سقطت عظمته وفقد قلبك قيمته، لا لقلة قيمته بل لقلة اعتناءك بما عنده. الرجل يرى كل النساء غير زوجته جميلات، إلا زوجته مسكينة ليست جميلة، حتى إذا تزوج الثانية اكتشف أنها مثل زوجته، كما قال النبي ﷺ: (فإن معها الذي معها)، فإذا تزوج الثالثة كان كذلك، فهي جميلة ما دامت بعيدة أجنبية لا يقدر عليها حتى إذا قدر عليها فقدها، وهكذا الأمر في الصداقة، بل هذا الأمر حتى في الثياب، أنظر للثياب ما شاء الله ما أجملها عليه، حتى إذا ملكتها انتهى أمرها في قلبي.

امتلاك الشيء للأسف عند الضعاف وعند الصغار مُذهب لقيمته، كثير ما كنت أسمع: أتمنى أن أجلس معك يا شيخ، فإذا جئت لم يتهم لك، فهو يضع هذه القاعدة، وهذه لا يفهمها إلا العظماء، فنحن لما نقول: ليتني في زمن النبي ﷺ، وفي زمن النبي ﷺ كان هناك منافقون، والنبي ﷺ عندهم {وَتَرَكُوكَ قَائِمًا} اثنا عشر رجل بقي، فهذه نزعة بشرية لا يفهمها إلا الكبار؛ أن يرى الجمال وهو بين يديه وهو يملكه وهو يتملكه، وليس من قبيل خداع النفس يقول لنفسه: هو جميل، لا هو يكون مدركًا للجمال وهو يراه والجمال تحت يده. هذه كيف تنفع في الصداقة؟ انظر لكلمة ابن حزم.

يقول –رحمه الله–: "**لا تزهد فيمن يرغب فيك**"، عادةً أنت تذهب تبحث عن الهارب منك، أما الجالس عندك ترغب عنه، هو جاي خلاص لكن إذا هارب هو الذي له قيمة.

ومن هنا نفقد صداقتنا لمن نحب ولا نستطيع أن نحضر العدو، العدو لا نكسبه بهذا والصديق نفقده، فنخسر على الجهتين، لذلك عليك أن تعرف قيمة من عندك، هؤلاء العظماء دائمًا تحافظ عليهم، وهذه طريقة النبي ﷺ كيف يعظّم أصحابه كيف يراهم عظماءً، كيف عمر يرى أن الصحابة عظماء، كيف يرى أبو بكر أن من حوله عظماء. فاحتقار الناس حين تملكهم وحين يكونوا إخوانك من أكثر مُفسِدات الحياة.

يتكلم عن قيمة الأعداء، يقول: "**ولقد انتفعت بمحكّ أهل الجهل منفعة عظيمة، فكان ذلك سببًا في تواليف عظيمة المنفعة ولولا إثارتهم ساكني واقتداحهم كامني ما انبعثت لتلك التواليف**".

نتكلم عن مفهوم المحنة وهي رغبة في المحبوب، وما دام ليس هناك رغبة فلا يمكن أن تنشأ المحنة.

الحسد، الحسود إذا أحضرت علمًا جديدًا لم يعرفه ولم يقرأه قال: "ما هذا العلم الجديد؟ ما البدعة التي أتيت بها؟"، فإن أحضرت له أصلها من كتب أهل العلم جعل يقول: "ماذا زاد؟ وهل جاء إلا بالقديم؟"، على الجهتين لن يرضى عنك الحسود!.

حقيقة هذه مهمة جدًا، يقول: "**كثرة الريب تُعلّم صاحبها الكذب**"؛ كثرة الريب الشك في الناس والحديث عنهم، لعل فلان كذا ولعله كذا..، يتكلم عن كثرة الاتهامات؛ يتهم يتهم يتهم وأنت تدافع، فإذا ثبت الكذب قال: تُعلم صاحبها الكذب، طبعًا هو يتحدث عن زمان، اليوم يكذب فإذا أحضرته من أجل مناقشته لا يأتيك يهرب، قديمًا كانوا ممكن أن يحضروهم، فكثرة الريب تعلم صاحبها الكذب؛ لأنه يضطر أن يعتذر بالكذب، أنا ما قلت هذا، أنا أشرت لكذا..، فيضطر للكذب للاعتذار عمّا اتهم به الناس فيقع في الكذب حتى يصلح له جِبِلّة ويستسهله.

من أعجب ما قال في باب من أبواب عظيمة، يقول: عندما يسبك الخصم بما ليس فيك فإنما هي فيه، عادة إذا سبك الخصم فيما ليس فيك فارتاح لأنها فيه لكن هو يريد أن يُعمّمها حتى تسقط قيمة هذه التهمة، هذه فائدة مهمة جدًا.

يقول وهذه كذلك من حكمة العلم، زعموا أن ابن حزم ليس عنده حكمة العلم، انظروا إليه!، يقول: "**الفاسق يتصور أن الناس مثله، والحكيم لا تنفعه حكمته عند خبيث الطبع، بل يظنه مثله**".

هذه في الحقيقة وجدت بعض الناس يتهم العلماء أنهم قصروا في بيان الحق مثلًا في طائفة أو في جماعة لأنهم لم يهتدوا، فيظن أن عدم اهتداء الخصم سببه عدم وجود الحكمة وعدم وجود البلاغ في الكلمة، فهل هناك حكمة أعظم من كلام الأنبياء؟ هل هناك بلاغ أعظم من كلمات الأنبياء؟ ومع ذلك أغلب الناس لم يستمعوا لهم، فهل عدم الاستماع سببه نقس في الكلام حكمةً وبلاغًا؟ لا.

يقول: "**الحكيم لا تنفعه حكمته عند خبيث الطبع، بل يظنه مثله**"؛ مثلًا لو افترضنا أن خبيثًا ما جاء لينصح رجلًا، وهو خبيث لماذا ينصحه؟ إما ينصحه من أجل أن يُثبت عليه قضية ليست فيه، تصوّر لو أن خبيثًا جاء لرجل داعية أو رجل عامل أو رجل مجاهد لينصحه، يقول: "يا أخي لا تسيء للناس"، هو لا يسيء، لكن لماذا يقول له هذه الكلمة؟ من أجل أن يُثبت أن هذا الرجل يسيء للناس، لكنه يأتي بهذه التهمة على جهة

النصيحة ، "وليتكم تفلعون كذا، وأنتم تفعلون كذا.." هذه وجدناها في أشخاص كثيرين في الحقيقة، هو يبدأ بالنصيحة لك وهو يعلم أنك لا تحتاجها لأن ليس ما يُناقضها فيك، لكن هو يريد أن يقول للناس أنها فيك، إذًا هو لما نصح بالحق ماذا أراد؟ أراد الخُبث.

فالخبيث يفهم هذا هو خبير به وهو صانعه، فإذا جئت أنت الحكيم لتنصحه أن لا يكذب مثلًا فماذا يفهمها؟ يفهم أنك أنت أتيت لتمارس لعبته، يفهم هذا الخبيث أنك جئت لتنصحه بعدم الكذب لتمارس لعبته بأن تُثبت عليه الكذب، يعني لأنك أنت خبيث النفس مثله، تمارس عليه النصيحة لتثبت عليه الفعل، كما يفعل هو مع خصومه ليُثبت عليهم الفعل من خلال النصيحة، فهل ينتفع بهذا؟

قال: "**الحكيم لا تنفعه حكمته عند خبيث الطبع بل يظنه مثله**".

في الحقيقة وهذا من صدق ابن حزم، يقول: هل في إنسان يحب الذم؟ يقول: لا يحب الذم ولكنه نافع، ويذكرني بكلمة ابن تيمية –رحمه الله–: "لو جاز لي أن أمدح خصمًا لي لمدحت خصومي بما نفعني الله –عز وجل– منهم".

من أجمل ما فيه ويحتاجها العلماء وأختم بها لأهميتها، يقول: "من أكثر الناس احتقارًا لشاهد الزور؟ ومن أكثر الناس احتقارًا للزانية؟ قال: "**أكثر الناس احتقارًا لشاهد الزور هو الذي استخدمه، وأكثر الناس احتقارًا للزانية هو من استأجرها**"، وليت العلماء يعرفون أكثر الناس احتقارًا لهم، لما تخرج أنت على المنبر وتقول عن فلان العظيم، هو يعرف أنه قذر، ويعرف نفسه أنه بائع لدينه، وتقوم وتمدحه فهو ماذا سيقول؟ أين عين هذا الشيخ؟ أين عين هذا العالم؟ عينه على القروش، مثل ما قال عمرو بن العاص: "والله إنك لتعلم أني أعلم أنك كذاب"، فهكذا يقول هذا الرجل لمن يُمدح بالكذب رجاء المال، وهو يتكلم عن هذه القضية، يتكلم عن قضية مهمة جدًا يرددها كثيرًا وهي قضية مدح الرجل بالوجه وذمه بالخلف، يتكلم عنها في مواطن مهمة في كتابه، يُرجع إليها. وهنا ننتبه بأن أكثر الناس احتقارًا لهؤلاء المشايخ هو من استأجرهم لأنهم يعرفون كذبهم.

وخذوا هذه الكلمة وتأملوها يقول الشيخ الإمام ابن حزم: "**إذا تكاثرت الهموم سقطت كلها**"، إذا كثرت الهموم تتدافع كلها وتسقط، وهذه من مكرمات هذا الإمام العظيم.

أسأل الله أن ينفعنا به وجزاكم الله خير الجزاء، والحمد لله رب العالمين.

* * * * * * *